

الأوروبيين في الكامرون والنيجر والملاوي، وكينيا والكونغو "لأبد من طرح هل جاءت هذه التحولات بفعل الانتصار على المستعمر أم بالتعاون معه". علينا أن نأخذ في اعتبارنا، عند تقييم أو إصدار حكم على الدول الإفريقية والشرق أوسطية حاليا "إن ما كان غير نزعة إمبريالية بين الحربين العالميتين (خلق المملكة المستقلة بالعراق سنة 1932 مثلا) تحول إلى سياسة مدركة بوضوح ومطبقة بمواظبة، حيث برز المصطلح المعروف بـ "تصفية الاستعمار". إن التفسير الاقتصادي لبن بركة يأخذ قاعدته في التغييرات الطارئة على الاستغلال الإمبريالي لإفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية و" التي كانت تميزه، وبحاول التشبه برأسمال الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن هذا الاتجاه الجديد مجرد اختيار في السياسة الخارجية للدول الأوروبية، بل هو تعبير عن تطوير عميق في أسس الرأسمالية الغربية ذاتها نتيجة لما حدث بعد الحرب العالمية الثانية من تغيير في أوروبا تحت تأثير مشروع "مارشال" والتداخل المتزايد للاقتصاد الأمريكي مع الاقتصاد الأوروبي مما جعل هذا الأخير يفقد خصائص القرن 19 الولايات المتحدة، فمن الطبيعي إذن أن ينهج نفس الأسلوب فتبحث أوروبا عن أمريكا اللاتينية خاصة بها".

إن لفظ النمو يستعمل كتبرير لأية اتفاقية أو التزام للاستعمار الجديد "حقيقة عميقة، إلى الآن مخفية، ولكن أساسية" في نظر بن بركة، وأفكاره في ما يخص هذا الجانب يمكن أن نوجزها في الأسلوب التالي:

(1) الوسيلة الوحيدة لتجنب فسح تعبئة الجماهير الإفريقية بعد الحصول على الاستقلال (المنموح والفرغ) هو إقناعها بأن هذا الاستقلال يقاس بمدى العمل الذي تبذله لأجل النمو والتقدم.

(2) يجب رفض التعبير الحسابي للنمو في عالما "هناك جانب إنساني - اجتماعي وثقافي يهيم إطلافاً تحديده للوصول إلى تحلٍ ملائم.

(3) انطلاقاً من النقطة الثانية، "الطريق السليم هو الذي يعد الرجال وفي نفس الوقت الأشياء لأجل نمو مستقل، وفي المستوى الثاني أكثر ضماناً وفعالية".

(4 - الحياض
عدم الانحياز

إن مثال عدم الانحياز الإفريقي - الآسيوي الذي نشأ في باندونغ عام 1955 عرف تجارب ساخنة في سنة 1956 (السويس) 1960 (الكونغو) 1962 (أزمة الكاريبي) و 1964 (الفييتنام). وفي صيف 1967 واجه أزمة الشرق الأوسط، في الوقت الذي تقلص فيه عدد زعمائه المرموقين دولياً: وفاة جواهر لال نهرو، الإطاحة إثر انقلاب عسكري "بسوكارنو" و"قوامي نكروما"، الرئيس جمال عبد الناصر كان يجتاز فترة دقيقة من حياته الرئاسية، لم يكن في تلك الأوقات سوى ثمار قليلة من روابطه القديمة مع غير المنحازين. وهكذا فمؤتمر قمة الخرطوم المنعقد في شتنبر 1967 كان مثالا واضحا للاواقعية عدم الانحياز العربي الذي لم يستطع إيقاف الاعتداء الإسرائيلي فقط، وإنما ترد في إعلان الحرب الشعبية لطرد جيش الاحتلال الصهيوني.

5 - الوحدة

الوحدة عند بن بركة يجب ملاحظتها بين واقعين: وحدة قد تحققت، وهي لامبريالية (يعني وحدة الاستغلال والعبودية)، والاشفاق (وليد الإمبريالية التي تنهش القارة حسب شهوات ونزاعات الاحتكارات الرأسمالية، الوحدة - يضيف الشهيد المغربي - يجب ربحها رويدا رويدا في صيرورة الصراعات العويصة، وليس اعتبارها خلاصة النتائج المحصلة. وبالرغم من أنه يقبل بأن تصفية النظام الاستعماري والانسجام المتدرج للسياسة الاقتصادية هما غاية العمل المضني، بالإمكان إذا توبع العمل بحزم، ومن جهة أخرى يشير "وقد أدرك الاستعمار خطورة هذا الشعار فقد يتسابق في اتجاه معاكس مع الجماهير الإفريقية وقادتها وطرح شعار الوحدة الفورية الشكلية على مستوى القارة، أو في المجالات الإقليمية، وهو بذلك يسعى فقط لتثبيت الأوضاع أي سيطرة الاستعمار، وإن خطورة هذا الأسلوب تحتم على المنظمات الثورية أن تقاوم هذا المفهوم الفاسد للوحدة الذي لن ينتج عنه سوى تدعيم الأنظمة الرجعية وإعطائها وجهاً يخفي تبعيتها للاستعمار الجديد".

ولمواجهة الإصلاحية التي تساعد النسق الرأسمالي الاستغلالي على الاستمرار، يقول بن بركة: "إن سياسة مناهضة للإمبريالية في الداخل كما في الخارج وحدها ستسمح لنا بأن نكون في مستوى مهامنا".

من أجل ثورة أفريقيا دراسة في الفكر السياسي عند المهدي بن بركة



أفريقيا التي ناضل بن بركة لتطويرها ما تزال تعاني أوضاعاً مأساوية

ويضيف: "إن دور حزب ثوري في الساعة الراهنة ليس هو رفع يافطة الاشتراكية، وإنما هو أن يثبت الخصائص التي تتميز بها أهدافه القومية الأصلية عن الاشتراكية المزيفة التي يمسأ طنينها أرجاء القارة الإفريقية، فمن الضروري إذن أن نقاوم بشدة الانحرافات والتضليلات التي تتسفر تحت اسم الاشتراكية وهي في الواقع ليست سوى أنظمة شبه فاشية أو إقطاعية أو عميلة للاستعمار". ولماذا يمسأ الاشتراكيون المزعومون اليوم القارة الإفريقية بأصواتهم الرنانة؟

وبالرغم من أن الطبقة الإفريقية المسيطرة حالياً كانت هي صوت الدعوة الوطنية إلى الاستقلال، فإن هذه النزعة الوطنية لم تكن تعبر عن أكثر من رغبتها وقراراتها لتصفية الحكم الاستعماري الذي كان باي حال يقمعهما في مستواها الثاني، ثم لممارسة السيطرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على شعبيها ذاته. هذه المجموعة لم تر في الحصول على الاستقلال المرحلة الأولى للتحرير الشامل للبلاد، وهذا الاستقلال لم يكن سوى نقطة الانطلاقة لنموها التام كطبقة مهيمنة، لم تحاول إذن تحطيم النظام الاستعماري، بل تعويض النخبة الاستعمارية الأجنبية بنخبة إفريقية، ومن ثمة جاءت دعواتهم المتكررة بأفريقيانية الإدارة، ومع ذلك، ففي قارة تعتمد على الفلاحة ويشكل الفلاحون غالبية سكانها، فإن عصرنة الفلاحة والفلاحين هي أساس كل تقدم. إن مسيرة النمو في أفريقيا، تجعل بالخصوص مفهوم التخطيط مقبولاً بالنسبة للطبقة المسيطرة التي تتحدث عن "الاشتراكية الإفريقية" وأيضاً عن الجماهير المعومة والطامحة في الحصول على منافع الحياة العصرية - وهكذا فالتخطيط يتحول كما قال أحد الاقتصاديين، إلى معوض للتغيير الجذري للبنى، أو بعبارة أخرى للثورة الإفريقية.

لقد أشار بن بركة إلى أنه "لا بد من مرور فترة طويلة أو قصيرة بين نهاية معركة التحرر السياسية وبين النقطة التي يمكن أن تنطلق منها حركة ثورية حقيقية، وغالباً ما تطول هذه الفترة اللهم إلا إذا استطاعت الحركة التحريرية أن تحطم هيكل الدولة الاستعمارية مثل ما وقع في فييتنام الشمالية".

(3) - التغييرات الطارئة على الاستغلال الإمبريالي لإفريقيا

- مسأوى النمو

إذا بحثنا في الماضي، كيف تحققت هذه الاستقلالات الإفريقية بعد الحرب العالمية الثانية، إذا استثنينا الأمثلة المعودة في مصر سنة 1952 و"غانا" 1957 (مع تحفظات بسبب الوقت الذي مر بين حملة العمل الإيجابي لسنة 1950، وبالقبول التام لحكومة "نكروما" من قبل الإدارة الاستعمارية البريطانية في مارس 1957)، في "غينيا" 1954 والجزائر 1962، إن الكفاح الطويل هو الضمانة الأفضل، والثورات المجهضة بطعنة الحربة وحيل وكيد

عظيمة كخطوة أولى، ومع ذلك يذكرنا بن بركة بأن اعتبار الحصول على الاستقلال شيئاً قديماً قد مر، و"فقط يحمل معنى تقديم المضمون السياسي والاقتصادي لهذا الاستقلال". وإذا أشرنا إلى أنه ما بين أغسطس وتشرين ثاني 1960 حصلت الدول التي كانت تشكل منظمة "الأفروالغاشي" على استقلالها من فرنسا، فهي لم تتحل عن كونها تابعة للاقتصاد الأوروبي المشترك، وعلينا أن نتفق مع بن بركة على أن غياب صبغة "اقتصادي" بجانب اسم "الاستقلال" يفقده ويفرغه من كل معانيه. هذه المسألة أساسية لفترة ما قبل الاستقلال ومرتبطة بطبيعة الحكم في الدول الجديدة ولها علاقة بشكل الحركة الوطنية التحريرية التي وصلت إلى السلطة.

يقول بن بركة: "يجب تحديد هل الذين يبدهم الحكم هم تعبير للإرادة الوطنية أم هم ممثلون للمصالح الاستعمارية... المسألة الأساسية في كل حركة وطنية هي مسألة السلطة السياسية: يجب السهر على أن يترجم الاستقلال مباشرة إلى انتقال السلطة الفعلية والكاملة إلى الممثلين الحقيقيين للثورة الوطنية في البلدان المعنية...".

مثال: في سنة 1960 تحولت الوديدة الفرنسية الكامرون إلى "جمهورية الكامرون". وإن الحركة التحريرية التي هيأت الشعب للكفاح المسلح مبكراً في سنة 1955 وعجلت به سنة 1958 تعرضت لهجوم مضاد بدون رحمة من طرف الاستعمار الفرنسي وكراكيه المحلية. وبعد موت الزعماء "زوبين أوم نيبو" و"فليكس موسي"، إن الواجب الأول لكل ثورة وطنية يكمن قبل كل شيء في الاستيلاء على جهاز الدولة وتسخيره لخدمة الشعب. يقول بن بركة: "في أفريقيا كل سياسة لا تمر من استئصال جذور الهيكل الإقطاعي والرأسمالي الاستعماري إنما تخدم مصالح الاستعمار الجديد، رغم ادعائها بالعمل على التصنيع والتخطيط وحتى الاشتراكية".

إذا كانت في بعض المناسبات كلمات مثل "التخطيط" تصلح لرأسمالية الدولة كلمات يستخدمها الاشتراكيون الطبيعيون، فإن تلك المناسبات هي انتقالية، وإذا كان التخطيط عبارة عن أداة رأسمالية الدولة. "هذا فقط يمكن قبوله عندما تكون القوات الشعبية قد تركت الفرصة تمر دون فرض إرادتها".

لقد حاولت بعض الاتجاهات الظهور أثناء مناظرة الاشتراكيين العرب التي أقيمت بالجزائر، وكان هدفها الرفع من درجة تزييف وتمييع الفكر الثوري في العالم العربي وإظهار أن البناء الاشتراكي يحقق نجاحات كبيرة في دول مثل العراق (...).

يقول بن بركة في هذا الصدد: "إن برنامجاً لتنمية قومية شاملة، ليس معناه أن يخدم جميع مصالح فئات المجتمع أو بالأحرى مصلحة إحدى فئات المجتمع أو بالأحرى مصلحة إحدى هذه الفئات دون سواها"

استقلال بلادها عن طريق المفاوضات، وتأتي هذه الملاحظة من عند بن بركة، بعد ملاحظته بانوراما الحكومات التي لاسون لها، والتي لم تكن غير كراكيه كثيرة العدد داخل منظمة الوحدة الإفريقية. إن نقده لبعض العناصر داخل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالمغرب، وهو نقد ذاتي في نفس الوقت، قدمه المهدي بن بركة في الستينات، ظل صائباً في هذا السياق. "يظهر لي أننا في الماضي قد انزلنا نحو ثلاثة أخطاء رئيسية، سوف تكون قاتلة لا محالة إن لم نندركها في الظروف الراهنة".

- الخطأ الأول، يرجع إلى سوء تقديرنا لأنصاف الحلول التي كنا مضطرين لأخذ بها.

- الخطأ الثاني، يتعلق بالإطار المغلق الذي مرت فيه بعض معاركنا بمعزل عن مشاركة الجماهير الشعبية.

- الخطأ الثالث نشأ عن عدم الرضوخ في مواقفنا الإيديولوجية وعن عدم تحدينا لهوية حركتنا".

إن الأحزاب الوطنية المترددة التي وصلت إلى السلطة السياسية في بعض الدول الإفريقية لم تعرف كيف تقي بالوعود التي أعطتها للشعب قبل الاستقلال، وأحزاب أخرى انتقلت إلى المعارضة العلنية أو السرية، وجدت نفسها مضطهدة من طرف حكام ديكتاتوريين أو من طرف رفاق الأمم، كان عليها أن تستوعب النقد الصائب للرقيم المغربي، الذي كان يقول: "لا التفاؤل الثوري ولا الثقة الكاملة في النتائج النهائية للكفاح ضد الإمبريالية يجب أن يمنعا من القيام بتحليل للجزء الخطير الذي تعرفه الحركة الثورية في بعض الجبهات".

وسبب هذا التراجع يكمن بالنسبة إليه: "بين الطموحات والقدرات الثورية للجماهير الشعبية من جهة والشروط الذاتية التي تمنحها المنظمات الحالية بشعاراتها وبرامجها، التي غالباً ما تكون غير قادرة لدفع الجماهير إلى مستوى المهام التاريخية". في أكثر من بلد إفريقي حصل على استقلاله دون كفاح مسلح، فإن شروط العمل الذاتية للمنظمات التقدمية المناهضة للاستعمار الجديد لم تعط انطلاقة حركة شعبية قوية وارتة لتكتيك نضالها، وشاهد على هذا سلسلة الانقلابات العسكرية التي تعرفها القارة الإفريقية، وأفضل تفسير سببي معروف ومقبول هو الضعف الملائم والغريزي للبورجوازية البيروقراطية التي ورثت الحكم عن الاستعمار.

(2) - بعد الاستقلال

- الاستعمار الجديد أو الاشتراكية أو رأسمالية الدولة.

إن الفكر السياسي عند المهدي بن بركة يولي أهمية خاصة لتلك اللحظة العظيمة والمليئة بالريبة والشك، وهي يوم إعلان استقلال الدول المستعمرة سابقاً، إنها لحظة

□ أرماندو انظرالغو - كوبا
ترجمه عن الأسبانية: إدريس الجبروني

لم تكن القارة الإفريقية، عند انتقال الاستعمار الأوروبي إلى مرحلته الإمبريالية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، غير بلاد فلاحين يعيشون على الفلاحة المعاشية، وكانت هذه الميزة مسيطرة على حقيقة مركبة لو كانت هذه الدول اتبعت تطوراً طبيعياً دون تدخل العنصر الأجنبي، كان سينتج عن هذه الاقتصاديات المعاشية بنبات اقتصادية عصرية. غير أن دخول ذلك العنصر الأجنبي الأوروبي أفلس الفلاحة ومعها أفلس الفلاح الإفريقي، الذي سلبت منه الأرض وسلمت للمعمرين الأوروبيين، وأصبح الإفريقي صاحب الأرض مجنذاً في خدمة المالك الجديد للأرض أو مجنذاً في خدمة المالك الجديد للأرض أو مجنذاً للبحث عن المناجم في قلب أفريقيا، وهكذا وجدت الأشغال الشاقة وظاهرة العامل المهاجر، كما عرفت المدن الإفريقية نمواً مذهلاً، خاصة في فترة ما بين الحربين العالميتين. في سنة 1931، كان عدد سكان مدينة "داكار" (السينغال) 54 ألف نسمة، وبعد ثلاثين سنة ارتفع إلى 383 ألف نسمة، وفي نفس الفترة، ارتفع عدد سكان "أبيدجان" من 200, 10 إلى 180 ألف نسمة، و"باماكو" (مالي) من 400, 19 إلى 180 ألف نسمة، و"أكرا" من 60, 700 إلى 325, 000 نسمة، و"ليوبولد فيل" من 30, 200 إلى 389, 500 نسمة و"نيروبي" من 29, 800 إلى 250, 800 نسمة و"السايبروري" من 20, 100 إلى 192, 800 نسمة إلخ ...

وإذا كانت السلطات الاستعمارية تحتاج إلى اليد العاملة المأجورة في المراكز الحضرية، فهي من جهة أخرى كانت تخشى وتيرة نمو هذه المراكز، وكما يقول بن بركة، إن أفواج الكادحين المكسدين في الضواحي الفقيرة المعروفة بمدن القصدية، كانت له نتيجة إيجابية، وهي نشوء طبقة عاملة، جعلت من المدن الإفريقية في عقد الخمسينات عبارة عن بركان من الإضرابات والمظاهرات. وهنا يجب التذكير بحالات "أبيدجان" و"لاغوس" و"أكرا" والدار البيضاء و"بريتوريا" و"السايبروري" إلخ... وكما يشرح ذلك بن بركة "إن منيع سطح هذه البروليتاريا يوجد في الأرياف". والعامل المهاجر إلى المدينة والمطرد من أرضه هو في ذاته تركيب التحالف بين العمال والفلاحين، هو تعبير عن إخلاء الأرض الإفريقية من سكانها، نتيجة غياب التصنيع، وفك الارتباط بالإنتاج الفلاحي وقلة المواد الغذائية

من بين هؤلاء السكان المكسدين في مدن القصدية برزت النواة الأولى من مناضلي الأحزاب السياسية الأولى، تلك الأحزاب الوطنية التي كانت تنزعها عناصر من البورجوازية الصغيرة، بقياس وسطهم كانوا مستغلين من طرف الاستعمار. أما الجماهير التابعة لهم فكانت تعكس "مواقف رجال ونساء، أغلبيتهم لم تكن في هذا العالم أو ذلك.

لم تكن في العالم القروي القديم، ولا في عالم المنافسة الحضرية". وفي ما بعد بدأت هذه المواقف، مع مرور الزمن، تتخذ طابعاً طبقياً عبر سيرورة بطيئة وثابتة. أما الشكل الثاني الذي يوضح هذه المرحلة أكثر، والذي عبر عنه بن بركة في إحدى المناسبات بـ "إن النضال الثوري ضد أي نظام اقتصادي واجتماعي لا بد أن يكون مزيجاً من الوسائل السياسية والعسكرية، وتارجحاً مستمراً بين الأساليب القانونية، والأساليب غير القانونية". وهنا يتفق فكر بن بركة مع فكر "فانون": "بعد أعوام من اللاواقعية، وبعد تنوير بين أئشباح لا تصدق، فإن المستعمر حمل الرشاشة ليوواجه القوات التي أنكرت كيانه، أي القوات الاستعمارية. والشاب المستعمر اكتشف الواقع وحوله إلى حركة عملية في ممارسة العنف".

إن القارة الإفريقية المقسمة اليوم إلى أفريقيا التي تحكمها الأقلية العنصرية، وأفريقيا المستقلة وأفريقيا الاستعمار الجديد، عليها أن تطرح من جديد هذه المشاكل بما فيها سطح الجماهير وعودتها للنضال لأجل تغيير الوجه والعمود الفقري لهذه الوضعية. وبين بركة كان يلح على طرح هذه المشاكل في محيط أفريقيا الاستعمار الجديد. إن الاستعمار الجديد، الذي استنوع إليه فيما بعد، أحكم قبضته على هذه الدول بتواطؤ ورضا "سياسيين وطنيين لم يلحوا أبداً على ضرورة استعمال القوة، لأن هدفهم لم يكن هو التغيير الجذري"، "بالنظر إلى الحلول التي يطرحها العنف، فإن النخبة تكون غامضة".

(فرانز فانون)
يشير بن بركة إلى الخيبة التي أصابت الأحزاب السياسية الوطنية التي حصلت على